كتابة الذاكرة الفلسطينية وتمثلاتها في الرواية الجزائرية المعاصرة (رواية نساء في الجحيم لعائشة بنور –أنموذجا-)

Writing Palestinian Memory and its representatoins in the Contemporary Algerian Novel (Women in Hell by Aïcha Bennour as a Model)

صبرينة صيفي*
مخبر المتخيل النقدي المعاصر والدراسات الحداثية في الفكر واللغة والأدب
جامعة عباس لغرور خنشلة (الجزائر)
sabrina.saifi@univ-khenchela.dz

حنينة طبيش
مخبر المتخيل النقدي المعاصر والدراسات الحداثية في الفكر واللغة والأدب
جامعة عباس لغرور خنشلة (الجزائر)
hanina.tabbiche@univ-khenchela.dz

تاريخ الإرسال: **2025-11-26** تاريخ القبول: **2025-05-25**

ملخص:

اشتغلت هذه الورقة البحثية على استدعاء الذاكرة الفلسطينية في رواية "نساء في الجحيم" للكاتبة الجزائرية عائشة بنور، بوصفها من الروايات التي تستذكر الوجع الفلسطيني، وتسرده كتابة. وقد اجتهدت هذه الدراسة للكشف عن آليات اشتغال الذاكرة الفلسطينية في رواية "نساء في الجحيم" وتوظيفها بما يخدم القضية الفلسطينية ويمجدها، ويخلد رموزها وأبطالها الذين ضحوا وناضلوا للدفاع عن حقهم المشروع في العودة إلى الأرض واستعادة الحق المغتصب.

الكلمات المفتاحية: ذاكرة فلسطينية؛ امرأة فلسطينية؛ قضية فلسطينية؛ التزام.

Abstract:

This reseach paper worked on recalling the Palestinian memory in the novel (Women in Hell) by the Algerian Writer Aisha Bennour, as one of the novels that recalls Palestinian pain and narrates it in writing.

This study has endeavored to reveal the mechanisms of operation of Palestinian memory in the novel (Women In Hell) and to employ it in a way that serves and glorifies it, and immortalizes its symbols and heroes who sacrificed and strugged to defend their legitimate right to return to the land and restore the usurped right.

* **ـ المؤلف المُراسل.**

Keywords: Palestinian memory; Palestinian Women; Palestinian issue; commitment.

مقدمة: تعد الذاكرة الشاهد الوحيد على تفاصيل الإنسان الماضية أمام ما يواجهه من رهانات وتحديات في مسيرته الحياتية، ولذلك صارت الكتابة عن الذاكرة أحد أهم وسائل الذات الأكثر فعالية لمواجهة الآخر في معركة إثبات الوجود والهوية، حيث أصبحت الرواية حقلا خصبا يتفتح فيه الروائي على ما يحوكه الساسة في مخططات العولمة، كي يحفظ هوية المستضعفين والمهمشين على سطح هذه البسيطة، معتمدا خطاب الذاكرة والاستذكار.

ولا توجد قضية على وجه الأرض لحقها من الظلم والجور ما لحق القضية الفلسطينية التي ما تزال صامدة في وجه كل المؤامرات والدسائس التي تسعى جاهدة لتزييف الحقائق والتاريخ، وهذا ما وثقته عائشة بنور في روايتها نساء في الجحيم وفق تخييل ذاتي استثمر التاريخ والواقع كمرجع. وقد اعتمدت المنهج الوصفي التحليلي، لوصف وتحليل المتن السردي بما حفل به من مشاهد سردية للإجابة على الإشكالية التالية:
إلى أي مدى وفقت الساردة في تحويل عملها السردي إلى قوة إنجازية تستثمر الذاكرة مع الفن لتصوير الماضي من وجهة نظر الحاضر، إثباتا للهوية الفلسطينية وخدمة للقضية الفلسطينية في راهنها ومستقبلها؟

1-كتابة الذاكرة تأصيل للهوية: أدى تسارع أحداث العالم وانفتاح بعضه على بعض في زمن العولمة إلى ظهور أزمات خانقة، لم تعد تتعلق بالسياسة والاقتصاد والمجتمع فقط، بل امتدّت إلى أزمة القيم، وصراع الهويات التي يعبر كلٌّ منها عن الامتداد التاريخي للجماعات البشرية المنتشرة في شتى أنحاء المعمورة، مما فتح المجال واسعا أمام حرب باردة تباح فيها كل الأسلحة للذود عن هوية وإزاحة أخرى.

1.1-حرب الهويات: أسهمت المثاقفة في الكشف عن خطورة العولمة الثقافية؛ حيث عملت على استنطاق المسكوت عنه، وتسليط الضوء على عوالم الهامش الذي سعى المركز-باعتباره القوة النافذة-إلى إلغائه واحتوائه لينصهر فيه، حيث تجلّت بوضوح طبيعة الصراع

القائم في عالم ما بعد الحداثة، والمتمثلة في صراع الهويات بالدرجة الأولى، فكان "السؤال الأكثر إرباكا وإحراجا في القرن الحالي هو سؤال الهوية"[1]

ولأن الهوية هي كل ما يميز الأنا أو الذات عن الآخر، فقد أصبحت محل صراع بين مختلف قوى العالم، لأن حقيقة المثاقفة أو انفتاح الثقافات يقتضي بالضرورة تماهي الهامش في المركز، وبالتالي زوال هويته واندثارها، مع أن الاختلاف عن الآخر حق مشروع يكفل للأنا صفاتها الخاصة والمميزة لها ، وهذه الصفات تثبت وتشتدّ وتقوى كلّما ازدادت موجة الآخر علوّا، ما يعني أن كل الهويات لها حق الدفاع عن نفسها في مواجهة الآخر "فالهوية وجود وحضور مستمر داخل الفضاء الاجتماعي الذي تولد فيه، والذي يعيد إنتاجها باستمرار، ومادام هذا الفضاء مفتوحا على الآخر المختلف فإن الهوية ستظل حية"[2] وتأسيسا على هذا النص فإن انغلاق هذا الفضاء وتقوقع الأنا فيه والتعصب لها يفضي بالضرورة إلى رفض الآخر المختلف، ومحاولة القضاء عليه.

2.1-السرد والهوية: إن الأدب هو مرآة تعكس صورة الشعوب وتصور أحوالها؛ لأن "العلاقة بين المجتمع والنص ليست علاقة انفصال أو تأثير أو تأثر، إنما هي علاقة كمون بصفة أساسية"[3]، لذلك سعى الأدباء إلى تصوير مجتمعاتهم وتدوين تجاربهم اعتمادا وبشكل أساسي على السرد الذي يسهم "في فهمنا لانعطافات هوية الإنسان"[4]؛ لأنه في تصويره

[1]مجموعة من الأكاديميين، إعداد: حياة أم السعد، تقديم: وحيد بوعزيز، 2008، العين الثالثة تطبيقات في النقد الثقافي وما بعد الكولونيالي، ط1، دار ميم للنشر، الجزائر، ص 91.

[2]سعيدة بن بوزة، 2016، الهوية والاختلاف في الرواية النسوية في المغرب العربي، ط1، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا، ص 35.

[3]بيير زيما، النقد الاجتماعي (نحو علم اجتماع للنص الأدبي)، 1991، ت: عايدة لطفي، ط1، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، مصر، ص 09.

[4]جبيتر بروكمبير/دونال كربو، 2005، السرد والهوية دراسات في السيرة الذاتية والذات الثقافية، ت: عبد المقصود عبد الكريم، ط1، المركز القومي للترجمة، مصر، ص 32.

للمجتمع، يشرح مختلف الظروف المحيطة بالأحداث، والأزمات التي تعترض الإنسان، وتؤدي دورا فاعلا ومؤثرا في تشكيل تفاصيل حياته وشؤونه فيها.

لذلك يلجأ-وبخاصة الروائي-إلى كتابة الذاكرة وتأريخ أحداث بعينها دون أخرى لها وزنها في تحديد معالم مجتمع معين، مواجهة للنسيان وحفظا للذاكرة الفردية والجماعية، متخطيا بذلك المسافة الفاصلة بينه وبين وقائع يعيد إنتاجها في نصه الروائي على هيئة سرد صريح ومموّه في آن واحد، غايته التشبّث بإرث مكتسب، يمثل الهوية بكلّ حمولاتها التاريخية، والدينية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية والثقافية، تحديا "لشتى الخيبات السياسية والمكبوتات الأيديولوجية"[1]، حيث يجنّد الروائي سرده خدمة لذاكرة الوطن والأمة، فيكتب الأحداث التي ترسّخ مبدأ حق التمسك بالهوية استنادا إلى التخييل الذاتي، إنصافا للشعوب وتضحياتها الجسام من أجل إثبات حقها في الوجود، والحياة بكرامة تليق بالإنسان، ومقابل ذلك يعمل على فضح المشروع المضاد الذي يعمل أصحابه على الإمعان في الإجرام، والاعتداء على حق الآخرين في الحياة بحرية وكرامة، وبما يليق وينسجم مع خصوصياتهم الثقافية والتاريخية .

وعليه فقد "كان موضوع الهوية من أبرز محاور الفكر العربي الحديث والمعاصر، كما شكّل موضوعا أساسيا في الكتابة الروائية مشرقا ومغربا"[2]؛ ذلك لأن الرواية وهي تدون وتوثق ذاكرة الأمم والشعوب، هي في واقع الحال تؤرخ لمجريات أحداث جسام عصفت بها، يستدعيها الروائي من الذاكرة، ثم يوظفها بالشكل الذي يضفي عليها جمال التخييل، وفي الوقت نفسه يجعلها لا تحيد عن التاريخ، وتحفظه من النسيان أو التجاهل والتجافي، وتبعثه إلى المتلقي في هيئة يقبلها، ويستسيغها، فيزداد تشبّثا بذاكرته وهويته.

[1] عبد القادر رابحي، 2016، أيديولوجية الرواية والكسر التاريخي، دط، منشورات الوطن اليوم، الجزائر، ص 21.

[2] سعيدة بن بوزة، الهوية والاختلاف في الرواية النسوية في المغرب العربي، ص 296.

2-ثيمة القضية الفلسطينية في الرواية الجزائرية المعاصرة:

لا أحد ينكر تلك العلاقة والصلة الوثيقة التي تربط الجزائر وأهلها بالقضية الفلسطينية التي هي قضية العرب والمسلمين وكل أحرار العالم وشرفائه، ومن هذا المنطلق كان من الطبيعي أن يقبل الأدباء من ذوي الحس النضالي على الكتابة عن القضية الفلسطينية؛ لكونهم على وعي بطبيعة الخطر المحدق بالأمة فـ"ساعدهم النثر على توضيح حقيقة الصهيونية من جهة، وتعميق أحداث القضية من جهة ثانية، ثم بيان دور الاستعمار الغربي في التآمر على فلسطين والعرب من جهة ثالثة"[1].

ولعلّ ما يربط بين الشعبين كان الدافع الأكبر لاستشعار هذه القضية والدفاع عنها، فالجزائر أيضا خاضت حربا ضروسا ضد محتل غاشم حاول جاهدا طمس هويتها وإلغاء ذاكرتها بمساعدة العدو الأول لفلسطين، وهم الصهاينة.

1.2 تعالق الذاكرة الفلسطينية والذاكرة الجزائرية: يلتقي الشعب الجزائري مع الشعب الفلسطيني في التجربة التاريخية المشتركة المتمثلة في الصراع التاريخي مع الظلم، ومع اليهود بوصفهم من المصاديق الواقعية في التعبير عن ممارسة الظلم، فاليهود كان لهم وجود ونفوذ على أرض الجزائر منذ عهد الدولة العثمانية؛ حيث استغل اليهود ضعف بعض الدايات الأتراك وأحكموا السيطرة على المجالين السياسي والاقتصادي، بل وأسهموا في احتلال فرنسا للجزائر واحتفلوا ابتهاجا بذلك، فقد "خرج اليهود يطوفون في الشوارع فرحين مبتهجين... وكانت أصوات هذا الشعب القذر تتعالى بهتافات (فيفا لافرنصيص، يحيا الفرنسيين)"[2]، ما يؤكد عملية المشاركة الفعلية لليهود واستنفارهم لتسهيل دخول فرنسا لأرض الجزائر، وجزاء ذلك "منحت السلطات الاستعمارية لليهود بعد الاحتلال مباشرة

[1] عبد الله الركيبي، 1982، الأوراس في الشعر العربي ودراسات أخرى، دط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص180.

[2] سيمون بفايفر، 1974، مذكرات ولمحة تاريخية عن الجزائر، ت: أبو العيد دودو، دط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 109.

امتيازات كبيرة في الاقتصاد والتجارة، فأصبح لهم دور بارز في الحياة السياسية والاقتصادية في الجزائر"[1]

لقد اصطلى الجزائريون بشر اليهود ومكرهم، ولهذا كانوا أكثر إدراكا لما يعانيه الفلسطينيون من مكائدهم.

2.2 حضور القضية الفلسطينية في الرواية الجزائرية المعاصرة: خرجت الرواية الجزائرية من شرنقة الاهتمام بالقضايا الوطنية وانعكافها على الأزمات المجتمعية التي سعى الروائيون إلى تشريحها من خلال كتاباتهم، تصويرا لملامح المجتمع، وغوصا في متاهاته الواقعية، وانفتحت على مواضيع ذات صلة بالصراع الممتد بين الحضارات والأمم في زمن العولمة الذي تحاول فيه القوى الكبرى طمس هوية الجماعات والدول الضعيفة والمهمشة، فأصبحت أكثر اهتماما "بالكيان والهوية وتحقيق الذات"[2].

ولأن فلسطين هي محور الحروب الصليبية عبر التاريخ والنزاعات الدينية المستترة حاليا ، فقد كان لزاما على الرواية المعاصرة-باعتبارها الجنس الأدبي الأقرب للقراء والأكثر تأثيرا فيهم-التعرض إلى قضية فلسطين، أرض الديانات السماوية ومهد الحضارات الإنسانية بإحساس المنتمي للجرح الفلسطيني، فتعددت الأقلام وتنوعت الثيمات وظلّت الغاية واحدة، هي كتابة الذاكرة الفلسطينية والذود عنها والتصريح بالولاء لها.

ومن بين الروايات الجزائرية المعاصرة التي تخندقت في هذا الاتجاه:

*نساء في الجحيم، عائشة بنور.

*سيرة الأفعى، عز الدين ميهوبي.

[1]عبد الله الركيبي، الأوراس في الشعر العربي ودراسات أخرى، ص 184.

[2]إيمان مليكي، 2020، عوالم الرواية النسوية الجزائرية الحديثة والمعاصرة بين التقليد والتجديد، ط1، ألفا للوثائق، الجزائر، ص 12.

*الصدمة، ياسمينه خضرا.

*سوناتا لأشباح القدس، واسيني الأعرج.

*موعدنا القدس، صلاح شكيرو.

*على خطى الياسمين، صبرينة صيفي.

حيث أمعنت هذه الروايات جميعها في الحفر في الذاكرة الفلسطينية والكتابة عن نكباتها المتتالية، لترسّخ في ذاكرة المتلقي حقائق المعضلة الفلسطينية، ومعالمها قبل أن يلحق بها الصهاينة ما شاءوا من أذى ومسخ وتدمير، وتجذّر فيه شعور الانتماء للقضية الأم ألا وهي القضية الفلسطينية.

3-تمثلات الذاكرة الفلسطينية في رواية نساء في الجحيم: تتميز الرواية بقدرتها على "فتح عوالم ليست عوالمنا، فإذا كان البرجوازي لا يكتب إلا عن البرجوازي، والكادح لا يكتب إلا عن طبقته لن تصبح الرواية إبداعا بل تماهيا فجا لواقع الكاتب ورؤيته للعالم"[1].

ولهذا كان من الطبيعي جدا للأدباء العرب أن يكتبوا عن نكبة فلسطين وأوجاعها وثوراتها حتى لو كانوا بعيدين عنها، لم يعايشوها ولم يكونوا طرفا فيها، ولكن انتماءهم العقدي والروحي لتلك الأرض حفّز أقلامهم على تخيّل مشاهد وعوالم تعكس حقيقة ما جرى عليها.

وقد احتفت الروائية عائشة بنور بالذاكرة الفلسطينية في روايتها (نساء في الجحيم) وتمثلتها في متنها السردي اعتمادا على تقنية المكان والزمان والشخصيات، ذلك لأن المكان "هو المحرك الأساسي لكل العناصر الحكائية الأخرى، والزمان هو الملازم الدائم له، والشخصيات التي تكشف عن أبعاد المكان وقيمته"[2].

[1] حياة مختار أم السعد، 2023، الذاكرة في السرد (أزمنة الحروب والمنافي والكراهية)، ط1، دار ميم للنشر، الجزائر، ص 43.

[2] جبالي مريم أنيسة، 2017، صورة الأرض في روايات عز الدين جلاوجي، ط1، دار المنتهى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ص 149.

1.3-تمثل الزمن: ترتبط الذاكرة بالزمن؛ لأنها متعالقة مع أحداث وقعت عايشها الإنسان في الماضي، ولهذا يعد الزمن من الأساسيات في كل متن روائي، لأن الأحداث المسرودة لابد أن تنطلق من حدث معيّن في زمن محدّد يستهل به الروائي سرده، قد يكون استرجاعا للماضي، وقد يكون استشرافا للمستقبل.

وتباشر الروائية عائشة بنور سردها عبر مقطع تذكري تشرع فيه باب الذاكرة المشروخ واسعا لتفتح معه باب الوجع والخيبة والنكبة، فتقول: "ارتعدت فرائصي وانتابني إحساس بالمرارة عندما استعدت ذاكرتي المشروخة عبر أحد شوارع المدن التي أزورها"[1]معتمدة تقنية الاسترجاع، وفي العودة إلى الماضي استرجاع لأحداث سابقة عن لحظة الحكي. إذ أسّست الروائية نصها انطلاقا من زمن النكبة سنة 1948م حيث سقطت الأراضي الفلسطينية في يد الاحتلال الصهيوني، وبدأ زمن التقتيل والتهجير والتشريد والضياع "والنكبة هي السنة التي طردنا فيها مكرهين من بيوتنا وأراضينا وخسرنا وطنا، لكن ليس للأبد"[2]، فكل أحداث الرواية مرتبطة بتلك اللحظة التي توقف فيها الزمن بالنسبة لكل فلسطيني على أرضه المنكوبة، المسلوبة والمغتصبة، وكأن لا زمن يمضي إلى الأمام، متوقف عند صدمة النكبة التي حولت الفلسطينيين إلى "لاجئين ومجانين في مخيمات الضياع، وعشرات المجازر والفظائع الإجرامية (مذابح خان يونس، دير ياسين، صبرا وشاتيلا، بيت لحم، غزة...)"[3] ، حيث تجمّدت عقارب الساعة أمام هزيمة نكراء وخسارة وطن، في انتظار النصر والعودة ليبدأ من جديد.

ولأن الذاكرة تحتم "أن يكون تاريخ الفكرة أو الحقيقة التي نفكر بها راجعا للماضي دون لبس"[4]فإن الذاكرة الفلسطينية في رواية نساء في الجحيم تتجلى في زمن النكبة وما تلاه من

[1]عائشة بنور، 2016، نساء في الجحيم، ط1، منشورات الحضارة، الجزائر، ص 07.

[2]عائشة بنور، نساء في الجحيم، ص 26.

[3]عائشة بنور، نساء في الجحيم، ص 27.

[4]ميري ورنوك، ت: فلاح رحيم، 2017، الذاكرة في الفلسفة والأدب، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ص 97.

تاريخ أسود مظلم، عايشه أبناء الأرض المهجرين، المقهورين، المطرودين من أرضهم لعقود من الزمن الممتد إلى يومنا هذا، حيث لا يزال الفلسطيني في الشتات يطرق أبواب الذاكرة لعلّ الحنين يسعفه يوما في العودة إلى الوطن.

2.3-تمثل المكان: المكان في الرواية ليس شيئا جامدا، بل هو نبض تتدفق به الحياة إلى النص الروائي، فيه تتشابك أرواح الشخوص وتنسج أحداث الرواية.

ولهذا يمثل المكان "مكونا محوريا في بنية السرد، لا يمكن تصور حكاية بدون مكان، فلا وجود لأحداث خارج المكان"[1]، وهو في الرواية المتعالقة بالذاكرة الفردية والجمعية أصل الحكاية ومحور الصراع.

والمكان في رواية نساء في الجحيم على امتداده كان مرتبطا بالوطن الأم فلسطين، فسرد الذاكرة يعني الحنين إلى مرابع الطفولة والصبا، يعني التشبّث بالبدايات المعبّقة برائحة من كانوا فيها ورحلوا "وأشرّع أبواب الذاكرة الموصدة بالتوغل أكثر في المكان أبحث فيها عن ملاذ من عرائي"[2].

إن ما يبقينا على صلة بالماضي ويبقيه فينا ليس استرجاع زمنه فقط بقدر ما هو رواحنا للمكان وتدفقه فينا "وليس علوق الذاكرة بالمكان مجرد ارتباط بالجدران والأبواب والجمادات التي فيه، بل إنه ارتباط بروحانية المكان"[3].

فعلى الرغم من التهجيروالتشتيت والانتقال من مكان إلى آخر، يبقى الارتباط الروحي بالمكان وما فيه من ذكريات تخلّده في الذاكرة حتى لو زال أو اندثر. لأن طبيعة العلاقة به ليست

[1]محمد بوعزة، 2010، تحليل النص السردي تقيات ومفاهيم، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، ص99.

[2]عائشة بنور، نساء في الجحيم، ص 181.

[3]سالم محمد ذنون العكيدي، 2022، الذاكرة والمكان (قراءة في الأدب العربي)، ط1، دار ماشيكي للطباعة والنشر والتوزيع، العراق، ص 09.

مادية بحتة، بل هي ما يسري في روح الإنسان مسرى الدم في العروق "هذا المكان مكاني، هذه الأشياء جزء لا يتجزأ من أوصالي"[1].

إن الذاكرة متواشجة مع السرد، تمنح البطل ومعه القارئ فرصة التجول في المكان، رغم مرارة التهجير وقسوة النكبة.

من عكا، إلى يافا، إلى خان يونس، إلى دير ياسين، إلى بيت لحم، إلى غزة، إلى الناصرة، إلى شارع صلاح الدين وخان العمدان طافت بنا الروائية في الشوارع والبيوت، في القرى والحقول، ترصد صور من غادروا "لقد كان عالمنا في مدينة عكا نشطا، وأرضنا تعجّ بالفوضى والمرح والطرب أحيانا وبالهدوء أحيانا أخرى"[2]. تكتب عاداتهم وتقاليدهم وحكاياهم، وتنسج ذاكرة شعب اغتصبت أرضه وحوربت هويته، فقد تم "طرد معظم القبائل البدوية وتدمير الهوية ومحو الأسماء الجغرافية العربية وتبديلها بأسماء عبرية ورسم خريطة جديدة على أرض الواقع على أجسادنا"[3]، وتلوح بها من بعيد في وجه الصهاينة ومن يقف خلفهم (الكوفية، القمباز، خبز التنور، الضيعة، الدبكة، شجر الزيتون، مفتاح العودة، شجر اللوز...)، فالتراث هوية، والتاريخ هوية، والذاكرة هوية، والهوية حية لا تموت. "إن جمالية الحنين إلى المكان هي جمالية استعادة الذات والهوية ومعنى الانتماء"[4].

هكذا تكتب الروائية عائشة بنور الذاكرة الفلسطينية باستحضار مدنها وقراها وتخليد تراثها وعاداتها، فالمكان بما فيه حصن للذاكرة، لا مكان فيها مغلق ولا آخر مفتوح، كل الأماكن مغلقة على وجع التهجير، وكلها مفتوحة بأمل العودة.

[1] عائشة بنور، نساء في الجحيم، ص 191.

[2] عائشة بنور، نساء في الجحيم، ص 16.

[3] عائشة بنور، نساء في الجحيم، ص 27.

[4] سعيدة بن بوزة، الهوية والاختلاف في الرواية النسوية في المغرب العربي، ص280.

3.3-تمثل الشخصيات: الشخصيات هي "أهم مكونات العمل الحكائي لأنها تمثل العنصر الحيوي الذي يقوم بمختلف الأفعال التي تترابط وتتكامل في مجرى الحكي"[1].

واللافت للانتباه في رواية نساء في الجحيم أن عنوان الرواية يوحي بأن مضمونها يدور حول المرأة ومعاناتها-وهو كذلك-إلاّ أنه ضم أسماء مقامات لها وزنها في الساحة الأدبية والسياسية الفلسطينية، لا يمكن أن نتجاهل حضورها القوي في المتن، فكانت الرواية ملتقى نخبة الانتفاضة والثورة ضد المحتل الصهيوني. منهم الأديب، والشاعر، والرسام والسياسي.

ولهذا لم نعثر في الرواية على شخصية رئيسة وأخرى ثانوية، حتى لو كانت أيلول هي بطلة الرواية ضمنيا، إلّا أنها صورة عن كل ذات فلسطينية بطريقة أو بأخرى؛ كل الشخصيات كانت وجع اغتراب ومشروع شهادة منها من قضي نحبه، ومنها من ينتظر.

شخصيات وظفتها عائشة بنور في متنها السردي من خلال ذاكرة أيلول، فكانت شخصيات متخيلة وأخرى واقعية، استنطقت بها الذاكرة الفلسطينية بكل ما فيها من حمولات تراثية، وتاريخية وسياسية.

أ-الشخصيات المتخيلة: تفتتح عائشة بنور مشاهد سردها الروائي بمشهد تذكري استرجاعي تعود من خلاله أيلول إلى الماضي لتحتمي به من شعور الاغتراب الذي يحاصرها، وهي تجوب شوارع مدينة تزورها. وأيلول هي شخصية متخيلة لا مرجع تاريخي لها، لكنها شخصية فاعلة تحرّك الرواية عبر مشاهد سردية متنامية نحو النهاية.

ولأن الشخصية "هي مفهوم تخييلي، تصنعه الصياغة الفنية"[2] فقد عمدت الروائية في بداية هذا المشهد السردي إلى ملفوظات دالة على اشتغال الذاكرة (أتذكر، لم أنس)، لتستدعي من خلالها جميع شخوص الرواية المتخيلة والواقعية.

---

[1] أميرة الكولي، 2013، البنى الحكائية في الأدب العربي (دراسة في ضوء المنهج البنيوي)، ط1، دار التنوير، الجزائر، ص 39.

[2] ليلي محمد بلخير، 2016، خطاب المؤنث في الرواية الجزائرية، دط، مؤسسة حسين راس الجبل للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 105.

تجسّد أيلول شخصية شابة فلسطينية مكلومة، فقدت جميع أفراد أسرتها في انفجار مهول لبيتهم العائلي، إثر غارة جوية صهيونية، جعلتها رهينة اللحظة الخرساء، وهي اللحظة الفاصلة في حياة أيلول بين ما كان قبل الانفجار وما تلاه. القابعة في خيمة وسط مخيم عين الحلوة مع جدها اليعقوبي وهو الوتد المتبقي رغم جحافل الضربات المتتالية عليه منذ النكبة.

تسترجع أيلول ماضيها عبر ذاكرة تجرها إلى الوراء، إلى بيت صغير في مدينة عكا، كان مفعما بالحياة، مسكونا بالألفة والمحبة. وإلى شوارع مأهولة بعبق التاريخ والتراث، وهي المرأة الحالمة المولعة بالحديث عن الثورة والنضال والحب، لتنقل لنا أحداث النكبة كما عاشتها، والذاكرة واحدة من صور المقاومة التي تتصدى لاغتراب الذات وتشظيها في المنفى، ف"الهوية الحق بالنسبة للشخصية المحورية تتمثل في الانتماء إلى الوطن، إلى الأرض، هنا فقط تتلاحم الهوية والجذور"[1].

ومع استرجاعها لتلك الذكريات الماضية تستدعي الروائية شخصية أخرى شرّحت بها ذلك الجرح العميق الضارب في الهوية الفلسطينية، فكانت شخصية أندريا الشاب اليافع الذي جاء يوما إلى فلسطين رفقة عائلته اليهودية قادما من لندن، حملته معها السيدة أوليفيا من يهود بريطانيا، زوج بنيامين، وهو ابن أختها لتقوم بتربيته كابن لها.

السيدة أوليفيا مهووسة بسحر الشرق وتراثه، لا تجد صعوبة في التعامل مع أبناء الأرض الفلسطينيين، على عكس زوجها بنيامين الحاقد على كل ما هو فلسطيني، والذي يكن العداء الشديد لكل ما يذكره بأنه الغريب المغتصب.

نشأ أندريا بين أبناء حيه، فكانت أيلول صديقته المقربة وحلقة وصله بمعاني السلام والحياة "أيلول هي الشابة الوحيدة القادرة على استعادة توازني وعلى ملء الفراغ بداخلي، يكفي أنها ترمم بداخلي كهوفي الموحشة، ويكفي أنها زرعت في نفسي مساحات للحب والسلام

[1] محمد معتصم، 2014، مكون الشخصية الروائية 'من السند التاريخي إلى هلاميات السليكون)، ط1، دار التنوير، الجزائر، ص 109.

والأمان"[1] بعد أن حاول بنيامين بشتى السبل الوضيعة فرض سلطته عليه ليكره كل ما هو فلسطيني، حتى أنه ألحقه بالجيش الصهيوني عنوة، لقتل الفلسطينيين والتنكيل بهم، لكنه عجز عن تحقيق مراده رغم استماتته المتكررة في ذلك، لأن للهوية جذورا راسخة تضرب في أرض الحقيقة وتمتد، ولا يمكن لأي عاصفة أن تجتثها حتى لو كانت محنة الاحتلال الصهيوني. فأندريا في الأصل هو الطفل الفلسطيني ياسين، الذي اغتيلت عائلته واختطفه الصهاينة وسلموه لعائلة يهودية، لتقوم بتربيته على أفكارهم المسمومة ضد كل ما هو عربي وفلسطيني، كي يحاربوا به أبناء أرضه، وهم يتلذذون بقتل الأخ لأخيه.

إن شعور الحب الذي جمع بين أيلول وأندريا منذ الطفولة رغم الحدود الشائكة بينهما كان أقوى من ضغائن الكره، ومؤشرا قويا على أن حق العودة إلى الأصل حق مشروع، وبخاصة إذا رعته امرأة عاشقة مؤمنة بالحرية، والمرأة قضية وانتماء ووطن.

لقد أنصفت الروائية الهوية الفلسطينية باكتشاف حقيقة أندريا وعودته إلى أصله الفلسطيني، وحاكت واقعا مريرا عن أزمة الهوية الفلسطينية بعد نكبة فلسطين واحتلالها، وبخاصة الأطفال الفلسطينيين الذين سلب منهم ماضيهم، وزور تاريخهم، وأنكرت حقائقهم، فعاشوا مغربين عن ذواتهم بلا هوية حقيقية.

تتضح من خلال هذه الشخصيات المتخيلة أصناف متعددة لشخوص تسردها الذاكرة، فالجد اليعقوبي هو الامتداد الذي يصل ماضي فلسطين قبل النكبة بما بعدها، وهو الشاهد القوي على أحقية أهل فلسطين بأرضهم.

وأندريا هو الجيل المشتت والمثقوب بفجوات الهوية المتصارعة على البقاء. أما أوليفيا وبنيامين فهما وجهان لعملة واحدة، وإن حمل أحدهما حبه لأهل الأرض وعاداتهم وتقاليدهم، والآخر كرهه لهم، فإنهما في النهاية اتفقا على تبني أندريا وسلبه ذاكرته وانتماءه في محاولة منهما لطمس هويته وتاريخه.

[1] عائشة بنور، نساء في الجحيم، ص 19

ب-الشخصيات المرجعية: هي شخصيات فلسطينية واقعية، صنعت التاريخ وحفظتها الذاكرة، وهي شخصيات سياسية كان لها دور بارز في الدفاع عن القضية الفلسطينية، أجادت عائشة بنور استحضارها في متنها السردي، وأهمها:

***-غسان كنفاني:** ابن عكا الذي هجّر من أرضه قصرا بعد النكبة إلى لبنان، ثم إلى دمشق، والذي جنّد قلمه لمحاربة الصهاينة والدفاع عن شرف أرضه المحتلة، وبخاصة أن الأرض "عند غسان كنفاني هي التاريخ والشعب والحق الشرعي للفلسطيني في وطنه، وبعبارة أخرى هي الهوية تمد الفدائي طاقة هائلة ليناضل من أجل استرجاعها من أيدي الصهاينة"[1]، فكان بحق شوكة في حلق الاحتلال الصهيوني لطبيعة نشاطه السياسي كناطق رسمي لمنظمة التحرير الفلسطينية، ولهذا قرّر الصهاينة اغتياله بتفجير سيارته في سنة 1972م.

وغسان كنفاني في رواية نساء في الجحيم هو ذاكرة الأرض المشروخة والمتشظية في الشتات، رجل يمتلئ بالغضب والحزن منذ هجرته الأولى وهو طفل إلى المجهول، هو الرجل "العكاوي الذي ذاق مرارة النزوح، والاغتراب، والجوع، والمرض، وأخذ على عاتقه نضال التحرر والمقاومة والوجع"[2].

هو صورة الرجل المغترب عن أرضه، المناضل الثائر في وجه الظلم وسطوة الاحتلال، عطشا للأرض والهوية "غسان كان فلسطين وكان البلبل الذي يغرد في سمائها والوجع المتنقل بين الضفة والأخرى"[3].

***-محمود درويش:** ابن قرية البروة الفلسطينية، اكتوى كغيره من أبناء أرضه بحقد الصهاينة وغلّهم فكان قلمه وشعره بمثابة سلاح شهره في وجوههم، وتحدى به جورهم، و"القلم سلاح، والكتابة معركة؛ سلاح يخدم المجتمع والوطن والدين ومعركة تنتصر للحق

[1] جبالي مريم أنيسة، صورة الأرض في روايات عز الدين جلاوجي، ص23.

[2] عائشة بنور، نساء في الجحيم، ص 122.

[3] عائشة بنور، نساء في الجحيم، ص 200.

على الباطل وللخير على الشر وللجمال على القبح"[1]، ذاع صيته وأصبح أحد أبرز وأشهر الشعراء العرب الذين أخلصوا للقضية الفلسطينية وحملوها على عاتقهم رسالة وقضية، إلى أن وافته المنية في سنة2008م.

لقد كان محمود درويش "عاشقا لفلسطين الأم"[2]، هو القلم الذي كتب قصة الشعب المهجّر، ووصف حزن المنفى في وجوه المشتتين في كل بقاع العالم.

***-ناجي العلي:** ابن الجليل، النازح إلى لبنان ككل المهجرين بعد النكبة، حارب الصهاينة برسوماته الكاريكاتورية الساخرة من غطرسة الصهاينة، الفاضحة لجرائمهم، الكاشفة لنواياهم الهمجية، والمعبرة عن هموم ومآسي أصحاب الأرض من خلال شخصية حنظلة "كنت حنظلة العلي عمري عشر سنوات ولدت الطفل حنظلة في ذاكرة كاريكاتورية يرسم عوالم مجهولة لواقع مؤلم"[3].

ناجي العلي، أو حنظلة العلي هو ذاكرة الطفل الفلسطيني المسلوبة أرضه، المغتالة طفولته، إنه الطفل المصّر على العودة، إنه الطفل الباحث عن الحقيقة والحرية.

لقد أصبح حنظلة بكل انتقاداته وهجوماته على الصهاينة أيقونة للفلسطينيين، إذ كان له وقعه الميداني الشديد على مخططات الصهاينة، ولهذا كان اغتيال ناجي العلي هو أنجع وسيلة للتخلص من ثورة حنظلة، حيث أصيب برصاصة غادرة أدّت إلى استشهاده سنة 1987م.

[1]مقالات للفيف من الكتاب الفلسطينيين ت: فهمي هويدي/عماد الدين خليل، 2023، الملحمة الفلسطينية، ط1، الفنار، القاهرة، ص 13.

[2]عائشة بنور، نساء في الجحيم، ص 255.

[3]عائشة بنور، نساء في الجحيم، ص 188.

*-**دلال المغربي:** فلسطينية الأصل من يافا، لجأت أسرتها إلى لبنان بعد النكبة، كانت عضوا في حركة فتح الفلسطينية، آمنت أن "المستعمر قد يسلبك أرضك، وحريتك، وحياتك، وصوتك، لكن الاقتناع بضرورة المقاومة يمنح آفاق التحرر"[1].

ودلال المغربي في رواية نساء في الجحيم هي "بقايا امرأة مشروخة ترى فيها وجهها أو ما تبقى من وجهها، عطرها أخذته الريح مأمورة في غفلة منها إلى إحدى القبور المفتوحة التي تنتظرها دون سابق إنذار"[2].

امرأة مسكونة بالحزن، تبحث عن الأمل في راية الحرية، تنشد الوطن، ولا سبيل إليه سوى الثورة والتمرد على المغتصب المعتدي، ولهذا قادت دلال المغربي عملية فدائية في قلب تل أبيب أسفرت عن استشهادها سنة 1978م.

ليلى خالد أو شادية أبو غزالة، لينا النابلسي، رسمية عودة، رندا النابلسي...، إضافة إلى الرموز السالفة الذكر جميعهم أسماء شخصيات فلسطينية بحثت عنها أيلول مع باقي أشيائها في الذاكرة، بها استعادت أنفاس الوطن المغتصب، وسدّت ثغرات الوجع المتجدّد مع كل اسم ورمز. كتبتهم عائشة بنور في روايتها تعظيما لدورهم في مسار القضية الفلسطينية، وتخليدا لما بذلوه في سبيل استرداد الأرض، ف "كانت الرواية بوحا "ثأريا" وواجهة لإضاءة الزوايا والمنحنيات المعتمة لاختبار الذات وتحقيق الهوية"[3].

لقد أخذت من تاريخ الأحداث ما ربطت به فواصل الزمن الذي تعثرت فيه مسيرة الكفاح الفلسطيني ضدّ الاحتلال الصهيوني الغاشم، وأكدت على أن كل الفلسطينيين على اختلاف انتماءاتهم ومشاربهم السياسية مشحونون بحب الوطن الذي هو فلسطين، ولا شيء آخر سواه.

---

[1] حياة مختار أم السعد، الذاكرة في السرد (أزمنة الحروب والمنافي والكراهية)، ص 61.

[2] عائشة بنور، نساء في الجحيم، ص 33.

[3] تقديم سعيد بوطجين، إشراف: مريم بشلم، 2014، المحكي الروائي العربي أسئلة الذات والهوية والمجتمع، ط1، دار الألمعية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 21.

الخاتمة:

- لقد أسهم انفتاح الثقافات على بعضها في تطور صراع الهويات ما أدى إلى ظهور أدب الذات الذي يسعى إلى كبح جماح هيمنة المركز على الهامش، وبالتالي الذود عن الفئات المستضعفة في العالم، والحفاظ على هويتها.

-نجاعة الرواية كأكثر جنس أدبي مقروء في كتابة الذاكرة فردية كانت أو جماعية.

-كتابة الذاكرة هو ترسيخ للهوية الشخصية وإثبات لها، وهذا ما يعني قدرة الإنسان على البقاء والرغبة في الاستمرار مهما كانت معوّقات الحاضر.

- استطاعت الكاتبة عائشة بنور تحديد معالم الوجع الفلسطيني، بداية من النكبة سنة 1948م، مرورا بما تلاها من تشريد وتقتيل وتهجير، اعتمادا على بوح الذاكرة وتخييل الذات.

-اشتغال الروائية عائشة بنور على الذاكرة الفلسطينية من خلال تصوير الزمن المتشظي، فيما عرفته القضية الفلسطينية من منعطفات عاشها الشعب الفلسطيني أجيالا بعد أجيال في مخيمات الشتات والمهجر، بعد أن هجّر من أرضه عنوة، وفي تصنيفها للقرى والمدن ترسيخا لمعالم الأمكنة وتاريخها.

-دفاع الروائية عائشة بنور عن القضية الفلسطينية بتعريف التراث الفلسطيني وتقديمه للقارئ، والتراث جبهة دفاع قوية في حرب الهوية.

-انتصرت رواية نساء في الجحيم لعدالة القضية الفلسطينية باعتزازها ببطولات الشعب الفلسطيني، وإنصافها لإنجازات المقاومين الذين بذلوا الغالي والنفيس في سبيل استعادة الأرض المقدسة، ومقاومة المحتل الصهيوني.

قائمة المصادر والمراجع:

1-أميرة الكولي، 2013، البنى الحكائية في الأدب العربي (دراسة في ضوء المنهج البنيوي)، ط1، دار التنوير، الجزائر.

2-إيمان مليكي، 2020، عوالم الرواية النسوية الجزائرية الحديثة والمعاصرة بين التقليد والتجديد، ط1، ألفا للوثائق، الجزائر.

3-بيير زيما، 1991، النقد الاجتماعي (نحو علم اجتماع للنص الأدبي)، ت: عايدة لطفي، ط1، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، مصر.

4-جبيتر بروكمبير/دونال كربو، 2005، السرد والهوية دراسات في السيرة الذاتية والذات الثقافية، ت: عبد المقصود عبد الكريم، ط1، المركز القومي للترجمة، مصر.

5-حياة مختار أم السعد، 2023، الذاكرة في السرد (أزمنة الحروب والمنافي والكراهية)، ط1، دار ميم للنشر، الجزائر.

6-سالم محمد ذنون العكيدي، 2022، الذاكرة والمكان (قراءة في الأدب العربي)، ط1، دار ماشيكي للطباعة والنشر والتوزيع، العراق.

7-سعيدة بن بوزة، الهوية والاختلاف في الرواية النسوية في المغرب العربي، 2016، ط1، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا.

8-سعيد بوطجين، إشراف: مريم بشلم، 2014، المحكي الروائي العربي أسئلة الذات والهوية والمجتمع، ط1، دار الألمعية للنشر والتوزيع، الجزائر.

9-سيمون بفايفر، 1974، مذكرات ولمحة تاريخية عن الجزائر، ت: أبو العيد دودو، دط، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

10-عائشة بنور، 2016، نساء في الجحيم، ط1، منشورات الحضارة، الجزائر.

11-عبد القادر رابحي، 2016، أيديولوجية الرواية والكسر التاريخي، دط، منشورات الوطن اليوم، الجزائر.

12-عبد الله الركيبي، 1982، الأوراس في الشعر العربي ودراسات أخرى، دط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

13-ليلى محمد بلخير، 2016، خطاب المؤنث في الرواية الجزائرية، دط، مؤسسة حسين راس الجبل للنشر والتوزيع، الجزائر.

14-مجموعة من الأكاديميين، 2018، إعداد: حياة أم السعد، تقديم: وحيد بوعزيز، العين الثالثة تطبيقات في النقد الثقافي وما بعد الكولونيالي، ط1، دار ميم للنشر، الجزائر.

15-محمد بوعزة، 2010، تحليل النص السردي تقيات ومفاهيم، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر.

16-ميري ورنوك، 2017، الذاكرة في الفلسفة والأدب، ت: فلاح رحيم، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان.